

## المقامات بين البديع و الحريرى

بقلم الدكتورة طاهرة عبدالحسين جال درة

### الخلاصة

المقامة في الأصل معناها المجلس، ثم أطلقت علي ما يحكى في جلسة من الجلسات على شكل حكاية ذات أصول فنية. و موجز هذه الأصول أنها حكاية قصيرة يسودها شبه حوار درامى، و تحتوى على مغامرات يرويها راو «و هو عيسى بن هشام في مقامات بديع الزمان، و الحارث بن همام في مقامات الحريري» عن «بطل» يقوم بها «هو أبو الفتح الإسكندري في أكثر مقامات بديع الزمان، و أبو زيد السروجي في مقامات الحريري» و قد يكون هذا البطل شجاعاً يفتحم أخطاراً و ينتصر فيها ، و قد يكون ناقداً اجتماعياً أو سياسياً، و قد يكون فقيهاً متضلعا في مسائل الدين أو مسائل اللغة ؛ و لكثه في حالاته كلها تقريباً- متسول ماكر ولوع بالملذات ، مستهتر ، يحتال للحصول على المال ممن يخدعهم.

ثم هو دائماً أديب جيد في أسلوبه عن بديهة و ارتجال. و في المقامات وصف للعادات و التقاليد التي تسود الطبقات الوسطى و الدنيا في كثير من المجتمعات الإسلامية.

**الكلمات الرئيسية:** المقامة ، بديع الزمان ، الحريري ، الراوية ، البطل.

## المقدمة

نشأ في أواخر العصر العباسي فن جديد قبله الأدب العربي و فسح له مجالاً رحباً و هو المقامات. و أنّ الغرض من المقامة لم يكن جمال القصص و إنّما أريد بها قطعة أدبية فنيّة تجمع شوارد اللغة و نواذر التركيب بأسلوب مسجوع ، كما أنّ أصحاب المقامات جملة لم يعنوا بتصوير الحكايات و تحليل الأشخاص ، و لم يكن همّ المنشئ للمقامات إلاّ تحسين اللفظ و تزيينه.

و هذه المقالة تحتوي على دراسة للمقامات بين البديع و الحريري و على دراسة لأسلوب مقاماتهما و الأثر الأدبي للمقامات.

## ماهى المقامة

يقول الشريشي في شرحه لمقامات الحريري : المقامات : المجالس واحدها مقامة ، والحديث يجمع له و يجلس لاستماعه يسمى «مقامة و مجلساً» لأنّ المستمعين للمحدث ما بين قائم و جالس ، و لأنّ المحدث يقوم ببعضه تارة و يجلس ببعضه أخرى ، قال الأعم : المقامة المجلس يقوم فيه الخطيب يحضّ على فعل الخير ، و البديع نفسه يبيّن ذلك في المقامة الوعظية : «قال عيسى بن هشام : فقلت لبعض المحاضرين : من هذا؟ فقال شخص قد طراً لا أعرفه ، و اصبر عليه إلى آخر مقامته ، لعله ينبئ عن علامته».

فالمقامات : جمع مقامة ، و هى كالمقام ، اسم مكان من قام بالمكان بمعنى أقام فيه ، و على هذا المعنى قول المسيب بن علس:

و كالمسك ترب مقاماتهم      و ترب قبورهم أطيّب

ثم توسع في استعمال اللفظ ، و انتقل إلى الدلالة على الجماعة المقيمة بالمكان ، و بهذا المعنى جاءت في قول زهير:

و فيهم مقامات حسان وجوهم      و أندية ينتابها القول و الفعل

ثم انتقل مرة أخرى ليبدلّ على الكلام الذي يلقى في مجلس من المجالس ، كما استعملت كلمة مجلس في هذا المعنى أيضاً ، و سمي بها الشريف المرتضى دروسه التي كان يلقيها على تلاميذه ، و دونها في أماليه فصولا اسمي كل واحد منها مجلساً على هذا الاستعمال الأخير.

و عقد ابن قتيبة في كتابه : «عيون الأخبار» فصلاً لكلام الزهاد بين أيدي الملوك ، و جعل عنوانه: «مقامات الزهاد عند الخلفاء و الملوك ، قال الجاحظ في كتابه «البخلاء» : و يذكرون من الشعر الشاهد و المثل ، و من الخبر الأيام و المقامات.

هذا هو معنى المقامة اللغوي ، أما معناها الفني فهو : هذا الفن البليغ البديع المنمق ، الذي صيغ في أسلوب قصصي لطيف يمثل قصة وقعت لشخص أو أشخاص ، يتخيلهم الكاتب ، و يضع على ألسنتهم حواراً يجتهد فيه في التحسين و التزيين و الوشى ، و يلتزم فيه السجع أو يكثر منه ، و يودعه ما أراد له ذوقه من طرائف و روائع و ملح و بدائع ، و نقد للأشخاص و المجتمع ، و وصف للأخلاق و البلاد و الناس.

و يعرفها زكي مبارك فيقول : إنها قصة قصيرة يودعها الكاتب ما يشاء من فكرة أدبية أو فلسفية أو خاطرة وجدانية أو لمحة من لمحات الدعابة و المجون.

و يعرفها الزيات بأنها حكاية قصيرة أنيقة الأسلوب تشتمل على عظة أو ملحمة. و يعرفها توفيق الحكيم بأنها أعمال قصصية قصد بها سرد حكاية و تصوير أشخاص.

و يعرفها آخر بأنها نوع من القصص القصيرة تحفل بالحركة التمثيلية.[١] و لقد كان من أثر الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، و تنتقل كتاب العربية في خراسان و أفغانستان و بلاد فارس و العراق و الشام ، أن اتصلوا بالحياة الاجتماعية ، و خالطوا العامة من الناس، و سمعوا شيئاً من أقاصيصهم و أحاديثهم، و عرفوا بعض الأشخاص الذين يتحدث الناس بأوصافهم و أخلاقهم ، فقصوا ذلك في المقامات المحتوية على قصص قصيرة يصف فيها الكاتب كل ما تأثر به و شاهده ، و يذكر فيها بعض الحوادث و الأماكن و الأشخاص ، و كانت تلك المقامات فناً جديداً في الأدب العربي تميز بالجانب الساساني فيه.[٢]

## تاريخ فن المقامات

اختلف المورخون و الادباء في تاريخ فن المقامات اختلافاً شديداً ، فذهب الحريري و القلقشندي و غيرهما الى انّ البديع هو واضع ذلك الفن. قال الحريري في مقدمة مقاماته : «و بعد فائنه قد جرى ببعض أندية الأدب الذي ركبت في هذا العصر ريحه ، و خبت مصابيحها ، ذكر المقامات التي ابتدعها بديع الزمان و علامة همدان ، فأشار من أشارته حكم ، و طاعته غنم ، الى ان أنشئء مقامات أتلو فيها تلو البديع ...» [٣] و قال القلقشندي : «إنّ اول من فتح باب عمل المقامات علامة الدهر و إمام الادب البديع الهمداني». و ذهب جرجي زيدان الى ان البديع اشتغل في مقاماته على نسق رسائل الامام اللغوي

أبي الحسين احمد بن فارس (٩٩٩م/٣٩٠هـ) ، و قد اشدت الخلاف في إثبات العلاقة او نفيها فيما بين الهمذاني و ابن دريد (٩٣٣م/٣٢١هـ) ، فان ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد و ابن قتيبة يُرجعان المقامات الى عهد ابعده من عهد البديع. و قال الحصري في عرض كلامه على بديع الزمان : «و لما رأى (البديع) أبا بكر محمد بن الحسن بن دريد الازدي أغرب بأربعين حديثاً و ذكرانه استنبطها من ينابيع صدره ... و اهداها للافكار و الضمائر في معارض عجميه و الفاظ حوشية ... عارضها بأربعمائة مقامة في الكدية». [٤]

و لكن الأرجح في هذه المسألة «انّ فنّ المقامات نشأ تدريجياً من رواية القصص و الاخبار و ان للبديع الهمذاني فضل تنظيمها و وضعها في شكلها الفني الخاص». فإن هذا الشكل الخاص لانجده في احاديث ابن دريد التي لاتتقيد بالسجع و ان لم تخل منه ، و لا تدور حول بطل واحد ، و لا تبلغ الصناعة اللفظية و البيانية فيها ما تبلغه في المقامات ، و لا تحتوي من ذكر النوادر و الاخبار و الاشارة الى وقائع الزمان و اعلام التاريخ ، و الحكم و الامثال و النكات و اللغة و الادب ، مثل ما تحتويه المقامات.

فقد استفاد البديع من احاديث ابن دريد ، و من أساليب الترسل و الكتابة المنمقة التي تهتم اهتماماً شديداً بالمبنى المسجع المزخرف ، فاستخلص منها اسلوب المقامات ، و استفاد من احوال عصره الاجتماعية و من أدب الحرمان فاستخلص منه موضوع المقامات. فكانت المقامات صدى لحرفة الكدية الشائعة إذ ذاك ، و صورة لحياة المكدين ؛ و كانت في اسلوبها خاضعة للذوق الادبي العام الذي كان اذ ذاك يكلف بالسجع و المحسنات البديعية ، و يميل الى تضمين النثر حكماً و أمثالاً و أشعاراً. [٥]

### اصحاب المقامات

أول من عرف من أصحابها هو ابن دريد صاحب الجمهرة المتوفى سنة ٣٢١هـ ثم ابن فارس صاحب المجمل في اللغة (سنة ٣٩٠) ثم بديع الزمان الهمذاني (سنة ٣٩٨) و هو أشهرهم ، ثم تتابع بعده طائفة من الأدباء في عملها كابن نباتة السعدي المتوفى سنة ٤٠٥ و ابن نايقا البغدادي المتوفى سنة ٤٨٥ و الحريري ابوالقاسم (سنة ٥١٦) ، ثم الزمخشري جار الله محمود بن عمر (سنة ٥٣٧) و هي مواضع سماها أطواق الذهب ، و مثلها أطباق الذهب لشرف الدين عبد المؤمن الأصفهاني ، و هما مواضع و حكم و ليس لهما من المقامات إلا إسمها ، و الكتابان مطبوعان متداولان ، ثم ابن الجوزي أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن البغدادي المشهور (سنة ٥٩٧) ... و أشهر هؤلاء رجلاّن : البديع و الحريري ، و من كتاب المقامات : ابن الوردي ثم السيوطي ، و الشهاب الخفاجي ، ثم العطار ، و الشدياق ، و اليازجي ، و عبدالله فكرى و سواهم. [٦]

## بديع الزمان الهمذاني

حياته : أبو الفضل احمد بن الحسين المعروف ببديع الزمان ولد في همذان و نشأ فيها و قد أخذ اللغة عن ابن فارس اللغوي الشهير ، ثم ضرب في الارض متنقلاً من خراسان الى جرجان الى سجستان الى افغانستان. و قد لقي في نيشابور سنة ٩٩٢م أبابكر الخوارزمي فناظره و توصل بشتى اساليب الحيلة و الدهاء ان يغلبه على امره ، و ان يحصل نفسه من جرّاء ذلك صيتاً رفيعاً عند الملوك و الرؤساء.

و أخيراً ألقى عصاه بهراة و صاهر أبا على الحسين بن محمد الخشنامي فانتظمت احواله ، و اقتنى بمعونته ضياعاً ، و عاش عيشة راضية. و قد توفي سنة ١٠٠٧م/٣٩٨هـ و هو لم يبلغ الاربعين من عمره. و كان نابغة في الحفظ و الذكاء و سرعة الخاطر و قوة البديهة.[٧]

## سمات مقامات البديع

المقامات مجموعة أحاديث تخبرنا عن شخص اسمه عند الهمذاني أبو الفتح الإسكندري ، و تنتبّع ما يقوم به من أعمال و ما يتفوّه به من أقوال. و هذا البطل لم يوجد في الحقيقة ، و قد حاول صاحب المقامات أن يوهمنا بأنه شخص حقيقي فزعم أنه قرشي النسب اسكندري المنبت ، و أن له زوجة و ولداً. و أنه كان غنياً فانقلب عليه الدهر و غداً فقيراً محتاجاً إلى عطاء الناس. و لذلك تراه يجوب الآفاق متنقلاً من بلد إلى آخر متنكراً في أزياء مختلفة متوسلاً للحصول على المال الكدية و الحيلة و الدهاء و ذرابة اللسان.

إن أبا الفتح ينصح باختيار طرق الكسب الدنيئة ، لأن الدهر دنيء ، و ينصح بالتخلي عن العقل و التزام الحمق لأن الناس حمقى و لئام. و السؤال الذي يمكن طرحه هو التالي : هل تعكس هذه الفلسفة واقعاً اجتماعياً متردياً في القرن الرابع الهجري في بلاد فارس؟ أو هل تعكس فكر بديع الزمان الهمذاني ذاته؟

يبدو أنها انعكاس لحالة اجتماعية متردية في زمان الهمذاني كانت تسود بلاد ايران ، لأن الذين ترجموا له حصروا تنقلاته في ايران فقط ، و يبدو أن الفقر كان منيحاً على طبقة واسعة من الشعب ، و أن التسول أو التكدى كان منتشرأ ، و أن عدد المكدين كان كبيراً ، و أن حيلهم في كسب المال كانت متنوعة و مُعقدة أحياناً. نلفي ذلك واضحاً في المقامة الساسانية و في المقامة الرصافية حيث يعدد حيل المكدين و اللصوص الغربية العجيبة. فذكر منهم أصحاب الفصوص ، و أهل الكف و القف ، و من

يعمل بالطف ، و من يحتال في الصف ، و من يخنق بالدف ، و من يكمن في الرف ، و من يبذل بالمسح و من يأخذ بالمزح ، ...

و هي لا تعكس فكر بديع الزمان ذاته لأن عيسى بن هشام راوية المقامات و الناطق على الأرجح باسم البديع كان تارة يلوم أبا الفتح على تصرفاته و يستغرب سلوكه و يطلب منه تفسيراً لأرائه ، و طوراً كان يبدي الشفقة عليه ، و يعجب بحسن بيانه و بلاغته و معارفه الأدبية و اللغوية و الفكرية الواسعة.

عدا هذه الناحية الاجتماعية نجد في المقامات ناحية أدبية: ففي المقامة القريضية يصدر أحكاماً نقدية على عدد من شعراء الجاهلية و العصر الأموي منهم امرؤ القيس و النابغة الذبياني و زهير بن أبي سلمى و طرفة بن العبد ، و جرير بن عطية و الفرزدق. و هذه الأحكام التي تتسم بكثير من الدقة و الإيجاز لم يبتكرها و قد سبقه إليها النقاد أمثال ابن قتيبة ، و ابن سلام الجمحي ، و غيرهما.

و تحفل المقامات بالوعظ و الحكم و الحث على العلم ، و قد خصص الهمداني مقامة للوعظ يدعو فيها إلى الزهد في الدنيا و الإعداد للأخرة ، يقول فيها : «إن بعد المعاش معاداً فأعدوا له زاداً ... ألا و إن الفقر حلية نبيكم فاكتسوها ، و الغنى حلة الطغيان فلا تلبسوها ...». أما العلم فلا يدرك بالحظ ، و لا بالحلم ، و لا بالوراثة ، و لا يستعار ، و إنما يتوسل إليه بالاجتهاد في الطلب و إيمان السهر و تحمل المشقات و الأسفار ، و كثرة النظر و اعمال الفكر ... (المقامة العلمية).

و نحن نجد تناقضاً في الآراء و تعارضاً في المواقف و اضطراباً في الأحكام. فهو تارة يدعو إلى العلم و طوراً يدعو إلى الحمق. و مرة يحث على طلب اللذة و أخرى يحث على الزهد. و أنا ينصح بالكرم و بذل المال و آونة ينصح بالبخل و اكتناز المال.[٨]

### أسلوب البديع

و كان همّ بديع الزمان أن يجمع في كل مقامة من مقاماته طائفة من الأساليب البلاغية المصنّعة التي تعتمد على السجع و البديع ، و إنه ليسرف في تجميل كل مقامة بأوسع طاقة ممكنة من الزخرف و الزينة و التتميق ، و من ثمّ انصرف عن الموضوع إلى الأسلوب و ذهب يجمله و يرصعه فنوناً من التجميل و الترصيع ، فالترصيع و التجميل هما غايته من عمله حتى تستوى له طرف إنشائية بليغة تروغ معاصريه ، و قد كان القدماء أنفسهم يعرفون ذلك ، يقول ابن الطقطقي: «إن المقامات لا يستفاد منها سوى التمرن على الإنشاء و الوقوف على مذاهب النظم و النثر». و إن من يتابع البديع في مقاماته يحس حقاً أنه ألفها لغرض التمرن على الكتابة و الإنشاء.[٩]

و ثمة صفة أخرى تمتاز بها المقامات هي كثرة الكلمات الغريبة التي لم تعد مألوفاً منا اليوم ، و كثير منها ساقه إليها التسجيع و الطباق و الجناس و غيرها.

أمّا السمة البارزة فهي الجمع بين النثر و الشعر. و قلّما تخلو مقامة من عدد من الأبيات التي تنسجم مع موضوع المقامة و سياق الكلام. و غالباً ما تختتم المقامة ببيتين أو أكثر يعبر بها أبو الفتح عن نفسه و مذهبه في الحياة. [١٠]

## الحريري

هو القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري ، ولد بضاحية من ضواحي البصرة تسمى المشان عام ٤٢٦هـ [١١] ، و توفي في عام ٥١٦هـ ، و لما شبّ ذهب إلى البصرة حيث «سمع الحديث و قرأ الأدب و اللغة». و سرعان ما أصبح بفضل فطنته و ذكائه صاحب الخبر في ديوان الخلافة ، و هي وظيفة تشبه وظيفة «مصلحة الاستعلامات» في العصر الحديث. و كان الحريري يسكن في البصرة بمحلة بني حرام ، و كان قبيحاً دميم الخلقه قذراً في لبسته و هيئته مبتلى بنتف لحيته. [١٢]

و كان مما خفف قبح الحريري أنّه كان ذكياً ذكاء شديداً يقول ابن الجوزي: «إنه فاق أهل زمانه بالذكاء و الفطنة» ، و يقول العماد الأصبهاني: «طلعت ذكاء ذكائه في المغرب و المشرق ، و امتلأ ببضائح فوائده ، و نواصع فرائده حقائب المُشتم و المُعرق» و يقول ياقوت: «كان غاية في الذكاء و الفطنة» و استغل هذا الذكاء في جانبين ، أما الجانب الأول فالأدب شعره و نثره ، و قد ترك في هذا الجانب مجموعة من الشعر كما ترك مجموعة من الرسائل ، و أيضاً فإنه ترك أهم مجموعة ألّفت في المقامات ، و أما الجانب الثاني فهو جانب التأليف في النحو ، إذ نراه يترك كما يقول ياقوت- كتاب «ملحة الإعراب» و هي قصيدة في النحو ، كما يترك كتاب شرح ملحة الإعراب ، و أيضاً فله كتاب «درّة الغواص في أوام الخواص» ، و هو معروف. [١٣]

## مقامات الحريري

أنشأ الحريري خمسين مقامة وفق العدد الذي بقي لنا من مقامات البديع ، و بناها على الكدية كما فعل البديع ، كلها حكايات درامية تفيض بالحركة التمثيلية و ان كان الحريري لم يقصد بها إلى القصص من حيث هو ، و انما قصد بها إلى تعليم الناشئة الأساليب الأدبية. و قد بناها على الرواية إذ يروي الحارث بن همام أحاديثها ، و يقول ابن خلكان: إنه عنى بهذا الحارث نفسه أخذاً من قوله صلى الله عليه و سلم: «كلكم حارث و كلكم همّام» و الحارث: الكاسب ، و الهمّام: كثير الاهتمام. [١٤] أمّا الأدب المستول الذي تروى عنه المقامات و الذي يقابل عند الحريري أبا الفتح الإسكندري عند بديع الزمان ،

فهو أبو يزيد السروجي ، و هو من أهل الكدية الذين احترفوا التسول متخذين وسيلتهم إلى ذلك الخلب بصوغ اللسان و سحر البيان.[١٥]

و قد نالت مقامات الحريري في عصره شهرة فائقة حتى قال فيها ياقوت في «معجم الأباة»: «لقد وافق كتاب المقامات من السعد ما لم يوافق مثله كتاب عرفته ، فإنه جمع بين حقيقة الجودة و البلاغة ، و اتسعت له الألفاظ و انقادت له جوامع البراعة ، حتى أخذ بأزمته و ملك ربقته ، فاختار ألفاظها و أحسن نسقها ، حتى لو ادعى بها الإعجاز لما وجد من يدفع في صدره ، و لا يرد في قوله ، و لا يأتي بما يقاربها ، فضلا عن أن يأتي بمثلها ، ثم رزقت مع ذلك من الشهرة ، و بعد الصيت ، و الإتقان في استحسانها من الموافق و المخالف ما استحقت و أكثر» ... و لمكانتها صارت نموذجاً فنياً يقتدى به الشباب و الأدباء في صناعة الإنشاء ، و يحفظه المتأدبون و الشداة ، كسباً للموهبة و تنمية للذوق ... و شرحها كثير من العلماء من بينهم الشريشي م ٦١٩هـ ، و عبداللطيف البغدادى م ٦٢٩هـ ، و العكبرى م ٦١٦هـ ، و ابن الأنبارى م ٥٧٧هـ ، و ابن الخشاب م ٥٦٧هـ ، و سواهم.[١٦]

و المعروف أن الحريري استهلّ كتابة مقاماته الثامنة و الأربعين و هى المسماة باسم المقامة الحرامية ، ثم أخذ في كتابة بقية المقامات [١٧] ، و قد بدأ في هذا العمل عام ٤٩٥هـ ، و انتهى منه عام ٥٠٤هـ ، و أقرّ في مقدمتها بأن الذي أشار عليه بكتابتها شخص «إشارته حكم و طاعته غُثم» و هو السياسى الفارسى المشهور أنوشروان بن خالد الذي كان وزيراً تحت إمرة الخليفة المسترشد بالله و السلطان مسعود السلجوقى ، و رأى ابن خلكان على نسخة من المقامات كتبها الحريري نفسه أنه صنفها لوزير آخر للمسترشد يسمى ابن صدقة [١٨] ، فشك في الرواية الأولى التى تذهب إلى أن أنوشروان بن خالد هو الذى أشار عليه بها ، و لكن من يدري؟ ربما كانت المسألة لا تزيد على أن الحريري كتب نسخة و أهداها إلى ابن صدقة! و يقال إن الحريري كتب خطّه على سبعمائة نسخة من مقاماته قرئت عليه ، و أكبر الظن أن اهتمامه بها على هذا النحو هو الذى حال بينها و بين البتر و الحذف و التغيير ، و لذلك كانت مقاماته من هذه الوجهة أتم و أطرف من مقامات البديع التى تبدو مبتورة في كثير من الأحيان.[١٩]

و كل مقامة عند الحريري ، تتكون من مقدمة و موضوع و خاتمة. المقدمة ، تدور حول فكرة واحدة ، و لكنها تردّ في صيغ لغوية مختلفة. إنها تتضمن فكرة «المطاردة» بين البطل و الراوى. يظهر البطل فجأة ، و في أماكن متباعدة ، قد تكون في المغرب أو في المشرق. و الراوى يتابعه و لا يملّ ، و يصور ظهور بطله في مظهر غريب ، يشدّ الانتباه ، و يثير التشويق.

أما الخاتمة فهي تدور أيضاً حول فكرة واحدة ، و لكن في صيغ لغوية مختلفة. إنَّها تشير إلى فكرة «اختفاء» البطل فجأة ، كما بدا في المقدمة فجأة ، إن صفة «المراوغة» في الخاتمة تكمل صفة المطاردة في المقدمة. و بين الفكرتين -المطاردة و المراوغة- نوع من «الحركة» تمنح المقامات رابطة كئيبة. إنَّ الراوى يعلن اختفاء البطل ، ثم يعلن في المقامة التالية ظهوره من جديد. و هذا النوع من الرابطة ، التي تعتمد على «الحركة» داخل المقامات ، يحيل المقامات كلها إلى عمل متماسك ، أشبه بالعمل الروائي ، الذي يعتمد على الفقرات المستقلة.

أما الموضوع ، فهو يتنوّع من مقامة إلى مقامة. فقد يدور حول الوعظ ، ثم ينتقل في مقامة أخرى إلى الفناء. و قد يدور حول الجد ، ثم ينتقل إلى الهزل ، أو حول الشعر ثم ينتقل إلى النثر ... و هكذا ، مما يمنح المقامات تنوعاً ، و يجعل القارىء (أو المستمع) دائماً مبهوراً ، ينتقل من فنن إلى فنن ، و من جديد إلى جديد. [٢٠]

و لعلّ أهمّ جانب تفتقر به مقامات الحريري من مقامات بديع الزمان هو أنّها كتبت في ظلال مذهب التصنّع و عقده ، بينما كتبت مقامات البديع في ظلال مذهب التصنيع و زخرفه ، و ليس معنى ذلك أن الحريري لم يبين مقاماته على السجع و لا على وشى البديع ، بل لقد بناها على أساس هذه المواد ، و لكّنه أخرجها في صورة جديدة هي صورة مذهب التصنع و ما يمتاز به من تصعيب الأداء ، إمّا بجلب أشياء غريبة عن دوائر الفن من حيث هو ، و إمّا بتعقيد ما يندمج في هذه الدوائر من جناس و غير جناس ، و إمّا باستحداث طرق جديدة كالطريقة التي قابلتنا في رسائله ، إذ وجدناه يبنى بعضها على حرف واحد ، و من يرجع إلى مقدمة مقامات الحريري يجده يقول فيها: إنها تحتوى على «ما وشحتها به من الآيات و محاسن الكنايات ، و رصّته فيها من الأمثال العربية ، و اللطائف الأدبية ، و الأحاجي النحوية ، و الفتاوى اللغوية و الرسائل المبتكرة ، و الخطب المحبّرة» [٢١].

مقامات الحريري خير نموذج أدبي قدمته لنا العصور التالية بعد أبي العلاء لم يستطع صاحبه أن ينفذ به إلى إعجاب الناس من حوله دون أن يضع لهم فيه ضروباً من التعقيد و التصعيب في الأداء بجانب ما فيه من سجع رشيق و ترصيع و بديع ، فقد مسح عليه لا بالتزامه ما لا يلزم في نهاية سجعته ، بل باستخدامه الواسع للكنايات و الأمثال و المسائل النحوية و الفقهية و الشعبذة برسالة رقطاع و خطبة من ذوات الحروف المهملة و ما يتصل بذلك من استخدام ما لا يستحيل بالانعكاس ، فإن هذه الجوانب كلّها سقطت إلى عمله عن طريق مذهب التصنع الذي كان يعجب به و بأصحابه ، و من الخطأ أن نبحث في هذه العصور عن كاتب لا يستخدم مثل هذه العقد و الطرق الملتوية في فنّه ، فقد كان ذلك الذوق العام للناس ، و كان الكاتب ما يزام يحتال على إرضاء هذا الذوق بصور و طرق مختلفة ، و ما

من شك في أنّ الحريري كان يعرف ذلك معرفة دقيقة ، و من أجله ذهب يُغرب على الناس في مقاماته بهذه المواد التي قدمناها حتى يظفر بإعجابهم ، و قد استمرت به رغبته تلك حتى استطاع أن يستحدث هذه الطّرفة الغريبة ، طرفة ما لا يستحيل بالانعكاس ، و هي طرفة تعبّر أبلغ تعبير عمّا انتهى إليه الفن لعصر الحريري من تصعيب و تعقيد.[٢٢]

### بين البديع و الحريري

يقول الحريري في مقدمة مقاماته: «البديع سباق غايات ، و صاحب آيات ، و المتصدى بعده لإنشاء مقامة ، و لو أوتى بلاغة قدامة ، لا يغترف إلا من فضالته ، و لا يسرى ذلك المسرى إلا بدالته». [٢٣]

و هذا يدلنا على فضل البديع و سبقه ، و الحقيقة أنّ مقامات البديع أكثر انطباعاً ، و أشد انسجاماً ، و أبعد عن زخرف الصناعة و غريب اللغة ، أمّا مقامات الحريري فأبداع فنوناً و أبرع خيالاً و أطف فكاهة و أكثر أمثالاً ، و قد نالت شهرة أكثر مما نالته مقامات البديع ، و ترجمت إلى اللغات الأوروبية.

فالحريري أشهر من كتب المقامات بعد البديع ، و قد نسج على منواله ، و كرر أغراضه بأسلوب جزل ، و إكثار من الكلمات الحوشية ، و ترديد للشعر القديم.[٢٤]

فشخصية «أبي زيد السروجي» تتكرر في مقامات الحريري المختلفة لتكشف عن جوانب نفسية متعددة لتلك الشخصية. و هذا نوع من التعمق في التصوير النفسى يقرب من النضج الفنى في القصص الحديث. فبطل المقامات الحريريّة أكثر وضوحاً في جوانبه النفسية من بطل مقامات بديع الزمان. على أنّ كليهما من البيئة الاجتماعية الدنيا، يصف من خلال حيله عاداتها و تقاليدها؛ و كلاهما كذلك يصف مفاصد عصره ليهجوه بها ، و ينقده من خلالها. في حين يستفيد منها في استهتار ينم عن واقع مسف، هو نتيجة لمفاصد العصر كذلك. و ينص الحريري على أنّه قصد من وراء هذا الوصف للشر التحذير منه، و العظة به، و التنبيه إلى خطره، و أنّ قصده خير من وراء تصويره لصنوف هذا الشر.[٢٥]

### الأثر الأدبي للمقامات

١-أدى ظهور المقامات في الأدب العربي إلى غنائها في الألفاظ و الأساليب و الأخيلة و المعاني و أضافت المقامات إلى الأدب العربي فناً أدبياً جديداً لم يكن له وجود من قبل هو فن القصة القصيرة.

قدمت المقامات نماذج أدبية جميلة للأدباء و المتأدبين ليحتذوها و يحاكوها و يسيروا على منوالها، مما يساعد على قوة الملكة و الموهبة. و قد أحييت المقامات كثيراً من مفردات اللغة و أساليبها، و من

صور الاداء و التعبير فيها. و قد أسهمت المقامات في بناء النهضة الأدبية الحديثة في مصر و العالم العربي، إذ كانت المقامات من أوائل ما طبع في مصر، فتداولتها الأيدي، و تناولها القراء، يتأدون بها، و يتخرجون عليها في صناعة النثر.

و قد ظهر فن أدبي جديد متأثر بفن المقامة، و هو ضرب من الإنشاء فيه مشابه من المقامة، و إن كان ليس منها، إذ لا يعتمد خصائص القصة و لا جانبها الفني، و هو مقالات قصار، تعتمد على الإيجاز و تقصد إلى الوعظ و الحكمة، و تسدى النصح و الخبرة و ثمرة التجربة إلى القراء، و ليس فيها حوار و لا لها راوية و لا بطل، و لا تساق لغرض الكدية، و هذا الفن نجده في مثل كتاب أطواق الذهب لعبد المؤمن الأصفهاني، و كتاب أطباق الذهب للزمخشري، و أسواق الذهب لأحمد شوقي.

و للمقامات بجانب هذه الحسنات آثار سيئة في اللغة و الادب ، إذ كانت الصناعة البديعية اللفظية المتكلفة السائدة فيها ذات أثر على فن الأدب و أسلوبه و على ملكات المتأدبين و الشداة، و أشاعت فن الأحاجي و الألغاز في الأدب و أبعدت الشباب خلال أوائل عصر النهضة عن الأصول الأدبية الأولى التي تمتلىء ثمارها بالطبع و الملكة و الموهبة القوية. [٢٦]

٢-و قد أثر الأدب العربي -فيما يخص جنس المقامات- في الأدب الفارسي. ففي مقامات حميد الدين الفارسية، للقاضي حميد الدين البلخي (عمر بن محمود) المتوفى عام ٥٥٩هـ، يسير مؤلفها على نهج «بديع الزمان» و «الحريري» كما يعترف في مقدمة مقاماته الفارسية؛ على الرغم من أن مقاماته تختلف عن المقامات العربية من وجوه: فشخصيته المؤلف تحتل المكانة الأولى المباشرة فيها. فليس فيها راو معين. و إنما يروي المؤلف أحداثه عن كبير من أصدقائه، لا يذكر أسماءهم. ثم إنه ليس في مقاماته بطل تتعدد مواقف في مختلف المقامات كما رأينا في مقامات الحريري و بديع الزمان؛ بل إننا نرى في كل مقامة من مقاماته الفارسية بطلاً يقوم بمغامراته، ثم يختفى دون أن يبين عن اسمه أو مصيره، و يظل مجهولاً وراء ستار الغموض و الإبهام. على أن المؤلف الفارسي يتوسع كذلك في مقاماته التي موضوعها المناظرات. و كذا في المقامات ذات الطابع الصوفي.

٣-و قد أثرت المقامات العربية كذلك في الأدب الأوربي تأثيراً واسعاً متنوع الدلالة، فقد، غذت هذه المقامات قصص الشطار الأسبانية بنواحيها الفنية و عناصرها ذات الطابع الواقعي، ثم انتقل التأثير من الأدب الأسباني إلى سواه من الآداب الأوروبية، فساعد على موت قصص الرعاة، و على تقريب القصة من واقع الحياة، ثم على ميلاد قصص العادات و التقاليد في معناها الحديث، و هي التي تطورت فكانت هي قصص القضايا الإجتماعية فيما بعد. [٢٧]

## النتيجة

المقامة شبه قصة قصيرة تدور حول الكدية و الاحتياى تستخدم لاطهار البراعة اللغوية و الأدبيه. و الأرجح ان فنّ المقامات نشأ تدريجياً من رواية القصص و الاخبار و من شيوع اساليب التتميق البيانى و البديعى، و انّ لبديع الزمان الهمدانى فضل تنظيمها و وضعها في شكلها الفني الخاص.

مقامات الحريري تشبه مقامات الهمدانى من حيث النزعة التعليمية، لا بل تفوقها في ذلك. و مقامات الهمدانى أسهل مأخذاً و أقل تكلفاً و أكثر ابتكاراً للوقائع و الحوادث، امّا مقامات الحريري فاكثر ايغالاً في التسجيع و التعقيد و تصعيب الاداء.

للمقامات قيمة لغوية بيانية فوق كل شىء، و هي صورة جزئية لحياة العصر.

## المراجع:

- ١- ابراهيم، عبدالحميد، (١٩٩٧)، الادب المقارن من منظور الأدب العربي، دار الشروق.
- ٢- ابن خلكان، احمد بن محمد، وفيات الأعيان و انباء ابناء الزمان، تحقيق احسان عباسي، المجلد الرابع، دار الفكر.
- ٣- بوملحم، على، (١٩٩٣)، الطبعة الأولى، مقامات بديع الزمان الهمذاني، دار و مكتبة الهلال.
- ٤- الحريري، مقامات، تحقيق عيسى سابا، بيروت، دار صادر.
- ٥- الحصري القيرواني، أبي اسحاق ابراهيم بن على، (١٩٩٩)، الطبعة الخامسة، زهر الآداب و ثمر الألباب، تحقيق زكي مبارك، المجلد الاول، بيروت، دار الجيل.
- ٦- الحموي، ياقوت، (١٩٨٨)، معجم الادباء، المجلد الثامن، الجزء السادس عشر، بيروت، دار احياء التراث العربي.
- ٧- خفاجي، محمد عبد المنعم، (١٩٧٣)، فصول في الأدب و النقد، مكتبة و مطبعة محمد على صبيح و أولاده.
- ٨- ضيف، شوقي، الطبعة الثالثة عشرة، الفن و مذاهبه في النثر العربي، القاهرة، دار المعارف.
- ٩- غنيمي هلال، محمد، (١٩٩٩)، الأدب المقارن، بيروت، دار العودة.
- ١٠- الفاخوري، حنا، (١٣٧٧هـ ش)، الطبعة الأولى، تاريخ الأدب العربي، توس.

## ملاحظة

الدكتورة طاهرة چال درة

استاذة مساعدة في قسم اللغة العربية و آدابها، الجامعة الاسلامية الحرة فرع گرمسار

## حواشى

- [١] (ضيف، الفن و مذهبه فى النثر العربى، ص ٢٤٤).
- [٢] (خفاجى، فصول فى الأدب و النقد، ص ٩).
- [٣] (الحريرى، مقامات، ص ١١).
- [٤] (الحصرى القيروانى، زهر الآداب و ثمر الألباب، ج ١، ص ٣٠٥).
- [٥] (الفاخورى، تاريخ الادب العربى، ص ٧٣٥).
- [٦] (خفاجى، فصول فى الادب و النقد، ص ١١).
- [٧] (الفاخورى، تاريخ الادب العربى، ص ٧٣٦).
- [٨] (بوملحم، مقامات بديع الزمان الهمذاني، ص ١٣).
- [٩] (ضيف، الفن و مذهبه فى النثر العربى، ص ٢٥٠).
- [١٠] (بوملحم، مقامات بديع الزمان الهمذاني، ص ١٥).
- [١١] (الحموي، معجم الأدياء، ج ١٦، ص ٢٤١).
- [١٢] (نفس المصدر، ص ٢٤٢).
- [١٣] (ضيف، الفن و مذهبه فى النثر العربى، ص ٢٩٣).
- [١٤] (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٦٥).
- [١٥] (ضيف، الفن و مذهبه فى النثر العربى، ص ٢٩٩).
- [١٦] (خفاجى، فصول فى الأدب و النقد، ص ٢٦).
- [١٧] (الحموى، معجم الأدياء، ج ١٦، ص ٢٤٤).
- [١٨] (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٦٤).
- [١٩] (ضيف، الفن و مذهبه فى النثر العربى، ص ٣٠٠).

[٢٠] (ابراهيم، الأدب المقارن من منظور الأدب العربي، ص ٣٥).

[٢١] (الحريري، مقامات، ص ١٢).

[٢٢] (ضيف، الفن و مذاهبه في النثر العربي، ص ٣٠٤).

[٢٣] (الحريري، مقامات، ص ١٣).

[٢٤] (خفاجي، فصول في الادب و النقد، ص ٣٤).

[٢٥] (غنيمي هلال، الادب المقارن، ص ٢٢٦).

[٢٦] (خفاجي، فصول في الادب و النقد، ص ١٥).

[٢٧] (غنيمي هلال، الادب المقارن، ص ٢٢٨).